

الترجيح بالسِّيَاق  
في تفسير الإمام الطبري  
د. حدة سابق  
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

**ملخص:**

يتناول هذا البحث وظيفة السِّيَاق في الترجيح بين الاحتمالات المتعددة في معاني المفردات والتراكيب القرآنية، مع التركيز على عناية الإمام الطبري بالتأصيل العملي لهذا العامل، وذلك بدراسة عدد من النماذج في تفسيره لنبرز استعانهه بسباق الكلام ولحاظه لكشف الرأي الراجح، سواء كان ذلك على مستوى آية واحدة، أم على مستوى أكثر من آية.

**ABSTRACT :**

This study explores the role of the context in considering the possible meanings of the words as well as the quranic concepts and contexts.

Referring in to the imam tabari's works on this field of studies , we tend to analyse some sample works of his interpretation. in fact, we aim to show his reference in to the precedent as well as the subsequent statement, in regard of it is applied on one verse or more.

### مقدمة:

يعدّ الإمام أبو جعفر الطبري عالماً جهبذاً في عصره، ودرّة فريدة في زمانه، فكان من الذين يرجع إلى رأيهم لمعرفة فضلهم وفضلهم. فقد "جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، وكان حافظاً لكتاب الله، عارفاً بالقراءات بصيراً بالمعاني، فقيهاً في أحكام القرآن، عالماً بالسنن وطرقها صحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من الخالفين في الأحكام، ومسائل الحلال والحرام، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم، وله الكتاب المشهور "في تاريخ الأمم والملوك"، وكتاب "التفسير" لم يصنف أحد مثله، وكتاب "تهذيب الآثار" وله في أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة" (1).

وتفسير الإمام أبي جعفر الطبري من أعرق أمهات التفسير، التي تميّزت بالدقة العلمية والمنهجية، وسلاسة الأسلوب. فرغم أنّه كان في وقت مبكر جداً، إلا أن القواعد والضوابط التي التزمها الإمام الطبري في تفسيره جعلت منه قبلة للمتخصصين في فنون شتى، التفسير، القراءات، اللغة والأدب، والحديث والتاريخ، وغيرها.

والمتتبع لهذا المؤلف يجده لم يكتف بجمع النقول والروايات في الموقف الواحد فحسب، بل يتعداه إلى المناقشة وترجيح الرأي الذي يرضيه ويتوافق مع السياق، أو الظاهر، ولا يميل به إلى أي توجيه آخر إلا للدليل قائم لديه.

فقد كانت عنايته بالسياق كقرينة لاعتماد رأي دون غيره، حاضرة في كثير من المواضع، حتى عدّ المصدر الأساسي لاعتماد السياق تنظيراً وتطبيقاً.

قال في شأنه الشيخ أحمد محمد شاكر: "وأبو جعفر رضي الله عنه لم يغفل قط عن هذا الترابط الدقيق بين معاني الكتاب، سواء كان ذلك في آيات الأحكام أو آيات القصص أو غيرها من نصوص هذا الكتاب. فهو يأخذ المعنى في أول الآية من الآيات، ثم يسير معه كلمة كلمة وحرفاً حرفاً ثم جملة جملة، غير تارك لشيء منه أو متجاوز عن معنى يدل عليه سياقها" (2).

(1) الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي، تاريخ بغداد، بتصرف، تحقيق الدكتور بشار عواد معروف. دار الغرب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الأولى، 1422 هـ - 2002 م، (548/2).

(2) أبو جعفر الطبري محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة. الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 2000 م، (536/4).

فالإمام الطبري، "عندما ينتصب للقول في تأويل الآية يسردها، ثم يقول: يعني تعالى بذلك، ويفصح ببيانه عن المعنى المراد معتمدا ربط السياق، والعود بمراجع الكلام إلى معاقدها الواردة في مواضع أخرى من القرآن العظيم، ومتمسكا بما يدور عليه المعنى من دلالة المفردات اللغوية على المعاني التي هي مستعملة فيها، ببيان المعنى الأصلي للمفرد، والمعنى المنقول إليه، مع بيان مناسبة النقل، والاستشهاد بالشعر العربي، على ما يثبت استعمال اللفظ في المعنى الذي حمله عليه"<sup>(1)</sup>.

مما سبق ذكره أردنا أن نبرز في هذا البحث عناية الإمام الطبري بالسياق في ترجيح المعنى المراد لديه سواء كان ذلك على مستوى المفردة القرآنية، أم على مستوى الجملة والمقطع القرآني.

---

(1) محمد الفاضل بن عاشور التفسير ورجاله، المكتبة العصرية، بيروت، (ص33).

### المطلب الأول: تعريف السياق:

لم يضبط السياق عند العلماء المتقدمين بتعريف محدد، وكانت عنايتهم متجهة مباشرة إلى الجانب العملي من تأصيل وتطبيق، ورغم وجود من يرى ممن جاء بعدهم أن هذا المصطلح من المصطلحات العvisية التحديد؛ فإن عددا من علماء الأصول، واللغة، والتفسير تناولوه بالتعريف، نذكر منها:

1. تناولوه بالتعريف العلامة عبد الله بن الصديق الغماري في كتابه "الحجة المبينة لصحة فهم عبارة المدونة"، في قوله: "إذا أراد شخص أن يفهم كلاماً فهماً صحيحاً، موافقاً لغرض المتكلم به، فلينظر إلى دلالة السياق والسباق". ثم تساءل: ما هو السياق؟ ليجيب: "السياق - بالمثناة التحتية - هو الموضوع الذي سيق الكلام لأجله، ودار البحث فيه"<sup>(1)</sup>.

2. وعرفه الدكتور نوح الشهري بقوله: "مجموعة القرائن اللفظية والحالية الدالة على قصد المتكلم من خلال تتابع الكلام وانتظام سابقه ولاحقه به"<sup>(2)</sup>.

3. وتناول الدكتور محمد الهادي حميتو بعض تعريفات الباحثين للسياق ووصفها بالسعة والشمول، ثم اختار تعريفاً لنفسه، فقال: "هو ما سيق الكلام لإفادته على نسق معين من ترتيب لفظه"<sup>(3)</sup>. وهذا التعريف المختار لديه تعريف قاصر لأنه يقتصر على القرائن اللفظية أو النصية دون الحالية.

ومن خلال هذه التعريفات نفهم أن السياق هو تلك الحثيات المقترنة بالنص المراد فهمه، سواء كانت الحثيات داخلية متمثلة في كلام سابق أو لاحق يستعان به على فهم المعنى، أو في جو الجملة ذاتها، أم كانت الحثيات خارجة عن نطاق النص، كالجو العام الذي قيل فيه الكلام، وقرائن أخرى كأسباب النزول وأسباب الورود وغيرها.

(1) عبد الهادي حميتو حضور اعتبار السياق في الكتاب والسنة وعمل السلف والخلف، بحث منشور في أعمال الندوة العلمية الدولية 2007م، الرابطة المحمدية للعلماء، دار أبي رقرق، المغرب، ط1، 2007، ص146، نقلا عن كتاب الحجة المبينة لصحة فهم عبارة المدونة للشيخ عبد الله الغماري، ص22.

(2) أثر السياق في النظام النحوي على كتاب "البيان في غريب إعراب القرآن لابن الأنباري"، ص79.

(3) حضور اعتبار السياق في الكتاب والسنة وعمل السلف والخلف، أعمال الندوة العلمية الدولية 2007م، الرابطة المحمدية للعلماء، ص146.

### المطلب الثاني: علاقة السياق بالسباق واللاحق:

فبعد أن تناول العلامة عبد الله بن الصديق الغماري تعريف السياق في كلامه السابق، تساءل عن مفهوم السباق، وأجاب، فقال: "السباق - بالموحدة - هو ما يسبق الجملة المراد فهمها"<sup>(1)</sup>.

ثم قال: "فمراعاة هاتين الدالتين يظهر مراد المتكلم ظهوراً بيئياً، وتصحُّ نسبه إليه نسبةً صحيحة. وأكثر الخطأ في فهم كلام الفقهاء سببه عدم الالتزام بما ذكرناه، لغفلة أو ذهول"<sup>(2)</sup>.

فالغماري جعل ظهور مراد المتكلم مبنياً على السياق والسباق، ولم يتناول اللاحق في كلامه، وكأنه لا أثر له في تجلية المراد، وهذا مخالف للواقع؛ إذ كثيراً ما نجد معنى الكلمة أو الجملة متوقفاً على معرفة اللاحق. وفي هذا السياق يقول السيد محمد رشيد رضا فيما جمعه عن أستاذه محمد عبده: "وقد قالوا: إنَّ القرآن يفسر بعضه بعضاً، وإن أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ:

- موافقته لما سبق من القول.

- واتفاقه مع جملة المعنى.

- وانتلافه مع القصد الذي جاء له الكتاب بجملته"<sup>(3)</sup>.

وعقب عليه عدنان زررور بقوله: "ومعنى ذلك أنه لا بد للدارس هنا أن يراعي التناسب بين السابق واللاحق بين فقرات الآية الواحدة، وبين الآيات بعضها وبعض، أي إن وجه هذا الارتباط بين الآية الواحدة، وبينها وبين سائر الآيات، يجب ألاَّ يهمل على الإطلاق للمفسر بوجه عام"<sup>(4)</sup>.

(1) ينظر: عبد الهادي حميتو، حضور اعتبار السياق في الكتاب والسنة وعمل السلف والخلف، بحث منشور في أعمال الندوة العلمية الدولية 2007م، الرابطة المحمدية للعلماء، ص146، نقلاً عن كتاب الحجة المبينة لصحة فهم عبارة المدونة للشيخ عبد الله الغماري، ص22.

(2) المرجع نفسه.

(3) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة 1990 م، 20/1.

(4) عدنان زررور، مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت، الطبعة الثانية، 1998م، ص226.

وتناول حسين الحربي في كتابه "قواعد الترجيح عند المفسرين" قواعد الترجيح المتعلقة بالسياق، وذكر من بينها قاعدة "إدخال الكلام في معاني ما قبله وما بعده أولى من الخروج به عنهما إلا بدليل يجب التسليم له"<sup>(1)</sup>.

وذكر في شرحه لهذه القاعدة معنى "ما قبله"، "وما بعده"، فقال:

وقولهم (ما قبله): "أي ما قبل هذا الكلام الذي وقع فيه النزاع، وهذا يسمى (سباقاً)"<sup>(2)</sup>.

وقولهم (ما بعده)، فقال: "أي ما بعد الكلام المتنازع فيه، وهذا يسمى لاحقاً"<sup>(3)</sup>.

ثم قال: "وهذا السباق واللاحق مجتمعاً يسمى (سياقاً)، فهذه قاعدة في ترجيح الأقوال التي يدل عليها سياق الآيات"<sup>(4)</sup>.

ووافقه في هذا الدكتور مثنى عبد الفتاح الذي اعتبر السباق واللاحق مكونان للسياق وليسا قسيمين له. وذلك في قوله: "...وبالنظر في هذين النوعين – السباق واللاحق – نجد أنهما لا يستقلان بأنفسهما، فما من سياق إلا وفيه سباق ولاحق، والسباق و اللاحق هما نفس السياق، فكل سياق له قبل وله بعد، وإنما يظهر أحدهما في الترجيح الدلالي، بمعنى أن السياق في سياق ما يرجح معنى على آخر، واللاحق في سياق آخر يرجح معنى على معنى، وقد يجتمعان – أي: السباق واللاحق – فيرجحان معنى على آخر، وهذا معنى قول المفسرين: وهو أولى التأويلين بما قبل وما بعد..."<sup>(5)</sup>.

ويقول في موضع آخر: "ويتم الترجيح الدلالي كذلك من خلال النظر في سياق الآية بما قبلها وما بعدها، وذلك عن طريق اقترانها بالآيات المجاورة

(1) حسين الحربي، قواعد الترجيح عند المفسرين دراسة نظرية تطبيقية، الطبعة الأولى، 1996م، ص125.

(2) المرجع نفسه.

(3) المرجع نفسه، ص126.

(4) قواعد الترجيح عند المفسرين دراسة نظرية تطبيقية، حسين الحربي، ص126.

(5) المثنى عبد الفتاح محمود، نظرية السياق القرآني دراسة تأصيلية دلالية نقدية، دار وائل للنشر، الطبعة الأولى، 2008م، ص116.

الترجيح بالسياق في تفسير الإمام الطبري..... د. حدة سابق

المتمة لمعناها، حتى يتسنى لنا النظر في معانيها على الوجه الذي يليق بجلال النظم"<sup>(1)</sup>.

وفي هذه الدراسة التطبيقية في تفسير الإمام الطبري سنبين مدى أثر السياق واللاحق في تعيين المعنى المراد من خلال ترجيحات الإمام الطبري.

### المطلب الثالث: الترجيح بالسياق:

تناول الأصوليون والفقهاء الترجيح بالتعريف والبيان في كثير من مصادرهم، ونكتفي في هذا الموقف بتعريف واحد لبيان معنى هذا المصطلح لديهم، مفاده أن "الترجيح تقوية أحد الدليلين، بوجه من وجوه الترجيح"<sup>(2)</sup>. فالترجيح عندهم يكون بين دليلين مختلفين.

أما الترجيح عند المفسرين، فلا يتعلق بالتعارض بين نصين فأكثر، بل يرتبط أساسا بأقوال المفسرين المختلفة في معنى الآية الواحدة، سواء كان ذلك على مستوى المفردة القرآنية، أم التراكيب والعبارات، مما يستدعي الترجيح بين تلك الأقوال.

وظيفة السياق لا تتوقف عند التفسير فقط، بل تتعداه إلى الترجيح بين الاحتمالات المتعددة لمعنى اللفظ أو النظم، فيقدم ما سيق الخطاب من أجله وما هو أوفق المعاني، وأوفق بمساق الخطاب<sup>(3)</sup>.

فبسياق الكلام تقوى دلالة مخصوصة على حساب دلالات مرجوحة، وترفع الاحتمالات بتأكيد احتمال واحد قوي لقوة مرتكزه السياقي<sup>(4)</sup>.

(1) المرجع نفسه، ص 97.

(2) زكريا الأنصاري، غاية الوصول في شرح لب الأصول، دار الكتب العربية الكبرى، مصر، ص 149.

(3) محمد الخلمشي، دلالة السياق بين مفهومي التفسير والترجيح، بتصرف، بحث منشور في أعمال الندوة العلمية الدولية 2007م، الرابطة المحمدية للعلماء، دار أبي رقرق، المغرب، ط1، 2007، ص 390.

(4) ينظر: محمد إقبال عروي، السياق في الاصطلاح التفسيري، مفهومه ودوره الترجيحي، بحث منشور في أعمال الندوة العلمية الدولية 2007م، الرابطة المحمدية للعلماء، دار أبي رقرق، المغرب، ط1، 2007، ص 351.





فقال: "چیچ حيث تستقر فيه، وذلك مأواها الذي تأوي إليه ليلا أو نهارا، وچیچ الموضع الذي يودعها، إما بموتها فيه أو دفنها، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال جماعة من أهل التأويل"<sup>(1)</sup>. وذكر منهم ابن عباس.

وقال آخرون: چیچ في الرحم، چیچ في الصلب، منهم: ابن عباس في رواية عنه، ومجاهد، والضحاك.

وقال آخرون: المستقر: في الرحم، والمستودع: حيث تموت، منهم: ابن عباس في رواية عنه.

وقال آخرون: چیچ أيام حياتها، چیچ حيث تموت فيه، منهم: الربيع بن أنس<sup>(2)</sup>.

ثم بيّن سبب ترجيحه للرأي الأول، فقال: "وإنما اخترنا القول الذي اخترناه فيه، لأن الله جل ثناؤه أخبر أن ما رزقت الدواب من رزق فمنه، فأولى أن يتبع ذلك أن يعلم مئاها ومستقرها دون الخبر عن علمه بما تضمنته الأصلاب والأرحام"<sup>(3)</sup>. وذلك في مستهل الآية في قوله تعالى: چېببېب پ پ چېچ .

ففي هذا النموذج نرى الإمام الطبري استند إلى رأس الآية في تحديد معنى المستقر والمستودع في الآية، فالأرض تعتبر قرينة لتوجيه معنى الاستقرار والاستيداع في الآية، والمعنى اللغوي لكلمة (مستودعها) يساعد على هذا المعنى، إذ نجد الكلمة في المعاجم اللغوية من لفظ (ودع) الذي يدل على الترك والتخليية<sup>(4)</sup>، وهذا ما يفهم مما يقتضيه الموت من الدفن في الأرض والترك والتخلي.

(1) تفسير الطبري، (15/242).

(2) ينظر: تفسير الطبري، (15/242 - 243).

(3) تفسير الطبري، (15/243).

(4) أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، سنة (1399هـ - 1979م). (6/96).

\* وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقْوَاهُ﴾ (1).

قال أبو جعفر الطبري: "اختلف أهل التأويل في "الأواه":

فقال بعضهم: هو الدعاء، منهم ابن مسعود في رواية زر عنه، وعبيد بن عمير الليثي.

وقال آخرون: بل هو الرحيم، وهو رواية عن ابن مسعود، والحسن، وقتادة، وعمرو بن شرحبيل.

وقال آخرون: بل هو الموقن، منهم: ابن عباس، وسفيان الثوري. وعطاء، وعكرمة، ومجاهد، والضحاك،

وقال آخرون: هي كلمة بالحبشية معناها: المؤمن، منهم: ابن عباس، وابن جريج.

وقال آخرون: هو المسبح الكثير الذكر لله، منهم: سعيد بن المسيب، وعقبة بن عامر.

وقال آخرون: هو الذي يكثر تلاوة القرآن، منهم: ابن عباس.

وقال آخرون: هو من التأوه، منهم: كعب في قوله: "كان إذا ذكر النار قال: أواه".

وقال آخرون: معناه أنه فقيه. واستندوا إلى حديث عبد الله بن شداد، قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الأواه: الخاشع المتضرع" (2).

وبعد عرض الإمام الطبري لهذه الآراء انتقل إلى مرحلة الترجيح فقال: "وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب القول الذي قاله عبد الله بن مسعود الذي رواه عنه زر أنه الدعاء" (3).

وعلّل هذا الترجيح بقوله: "وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب، لأن الله ذكر ذلك، ووصف به إبراهيم خليله صلوات الله عليه بعد وصفه إياه بالدعاء والاستغفار لأبيه، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقْوَاهُ﴾ (3).

(1) التوبة: 114.

(2) تفسير الطبري، مختصراً، (14/ 523 - 532)

(3) تفسير الطبري، (14/ 532)







إِنْ أَجْرَاتُ حَرَّةٍ يَوْمًا فَلَا عَجَبٌ \* \* \* \* \* زُوِّجَتْهَا مِنْ بَنَاتِ الْأَوْسِ مُجَزَّئَةً"<sup>(1)</sup>.  
**الفرع الثالث - الترجيح بالسباق واللاحق معا:**

كما استعمل الإمام الطبري السباق واللاحق معا، في مواضع أخرى لترجيح المعنى الصواب لديه، ففي قوله تعالى: **چٹ ٹ ڈ ڈ ف ف ف ف** (1) ذكر أبو جعفر الاختلاف في قوله تعالى: **چ ف ف ف چ چ چ ج ج چ ج**، وقوله: **چ چ ج ج ج**. فمنهم من قال: هم ناس من أهل الكتاب حين سمعوا ما أنزل الله على محمد. ذكره مجاهد.

وقال آخرون: ما أنزل إليهم من عند الله. ذكره ابن زيد.

وقال آخرون: عني بقوله: **چ ف ف ف چ ف ف ف** القرآن الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم. و**چ چ ج ج ج**، كتابهم، ذكر ابن جريج<sup>(3)</sup>.

ثم يرجح أبو جعفر ويعلل، فيقول: "وإنما قلنا: عني بقوله: **چ چ ج ج ج** القرآن؛ لأنه في سياق ذكر القرآن لم يجر لغيره من الكتب ذكر، فيصرف الكلام إليه، ولذلك جعلت الهاء التي في قوله: **چ ف ج ف** من ذكر القرآن، لأن الكلام بذكره جرى قبله، وذلك قوله: **چ ج ج ج**"<sup>(4)</sup>، وما بعده في سياق الخبر عنه، فذلك وجبت صحّة ما قلنا إذا لم يأت بخلاف ما قلنا فيه حجة يجب التسليم لها"<sup>(5)</sup>.

\* كما استعمل السباق واللاحق معا في أكثر من آية، بحيث يستعين في فهم الآية، بالنظر إلى آيات عدّة قبلها، وآيات بعدها، مثال ذلك:

أنه ذكر اختلاف أهل التأويل في قوله تعالى: **چ و و و و**<sup>(6)</sup>:

(1) أبو القاسم الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الثالثة - 1407 هـ، (4/ 245).

(2) الإسراء: 107.

(3) تفسير الطبري، مختصراً، (578/ 17).

(4) الإسراء: 106.

(5) تفسير الطبري، (578/ 17).

(6) المدثر: 06.

فقال بعضهم: معنى ذلك: ولا تعط يا محمد عطية لتعطي أكثر منها، من هؤلاء: ابن عباس، وضمرة بن حبيب، وأبو الأحوص، وعكرمة، والنخعي، والضحاك، وقتادة، وطاوس<sup>(1)</sup>.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولا تمنن عملك على ربك تستكثر، منهم: الحسن، والربيع بن أنس.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: لا تضعف أن تستكثر من الخير. ووجّهوا معنى قوله: (وَلَا تَمُنُّنْ) أي لا تضعف، من قولهم: حبل منين: إذا كان ضعيفاً. منهم: مجاهد.

وقال آخرون في ذلك: لا تمنن بالنبوة على الناس، تأخذ عليه منهم أجراً، منهم: ابن زيد<sup>(2)</sup>.

وبعد عرضه لهذه الآراء ذكر الرّاجح لديه وسببه، فقال: "وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب في ذلك قول من قال: معنى ذلك: ولا تمنن على ربك من أن تستكثر عملك الصالح"<sup>(3)</sup>.

ثم بيّن سبب هذا اختياره هذا فقال: "وإنما قلت ذلك أولى بالصواب؛ لأن ذلك في سياق آيات تقدم فيهنّ أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالجدّ في الدعاء إليه، والصبر على ما يلقى من الأذى فيه، فهذه بأن تكون من أنواع تلك، أشبه منها بأن تكون من غيرها"<sup>(4)</sup>.

فابن جرير لاحظ في الرأي الذي رجّحه موافقته لسياق الآيات السابقة واللاحقة لآية: جُوؤُوجْ، فالأمر بالجدّ في الدعاء إليه كان في الآيات السابقة في قوله تعالى: جِهْ عَ لَ كَ لَ كَ (5)، والصبر على ما يلقى من الأذى كان في الآية اللاحقة في قوله تعالى: جُووِجْ (6). فلما كان سياق تلك الآيات يتعلق

(1) ينظر: تفسير الطبري، (13/23 - 15).

(2) ينظر: تفسير الطبري، (13/23 - 16).

(3) ينظر: تفسير الطبري، (16/23).

(4) ينظر: تفسير الطبري، (16/23).

(5) المدثر: 01 - 03.

(6) المدثر: 07.

بعلاقة النبي صلى الله عليه وسلم بخالقه، ترجّح لدى الإمام الطبري، أن يكون معنى: چوؤؤؤچ، ولا تمنن على ربك من أن تستكثر عمك الصالح.

ورغم أن عددا من المفسرين ذكروا هذه الآراء التي عرضها الطبري وأضافوا إليها، إلا أنني لم أقف على من أيده في ترجيحه هذا، إلا ما ذكره الإمام فخر الرازي في تفسيره حين آراء المفسرين في الآية، وذكر في الوجه الأول منها في قوله: "أنه تعالى أمره قبل هذه الآية بأربعة أشياء: إنذار القوم، وتكبير الرب، وتطهير الثياب، وهجر الرجز. ثم قال: چوؤؤؤچ، أي لا تمنن على ربك بهذه الأعمال الشاقة كالمستكثر لما تفعله، بل اصبر على ذلك كله لوجه ربك متقرباً بذلك إليه غير ممتن به عليه"<sup>(1)</sup>. ولم يعقب بشيء يفيد تبنيه لهذا الموقف.

ولم يرتض الشيخ ابن عاشور تلك التفسيرات جميعاً، وانتقدها في قوله: "وللأسبقين من المفسرين تفسيرات لمعنى ولا تمنن تستكثر، ليس شيء منها بمناسب، وقد أنهاها القرطبي إلى أحد عشر"<sup>(2)</sup>.

وذكر توجيهها نفيساً انفرد به عن سبقه، قال: "مناسبة عطف ولا تمنن تستكثر على الأمر بهجر الرجز، أن المنّ في العطية كثير من خلق أهل الشرك، فلما أمره الله بهجر الرجز نهاه عن أخلاق أهل الرجز، نهياً يقتضي الأمر بالصدقة والإكثار منها بطريق الكناية. فكأنه قال: وتصدق وأكثر من الصدقة ولا تمنن، أي لا تعد ما أعطيته كثيراً فتمسك عن الأزداد فيه، أو تنطرق إليك ندامة على ما أعطيت.

والسّين والتّاء في قوله: تستكثر للعدّ، أي بعد ما أعطيته كثيراً. وهذا من بديع التأكيد لحصول المأمور به، جعلت الصدقة كالحاصلة، أي لأنها من خلقه صلى الله عليه وسلم إذ كان أجود الناس، وقد عرف بذلك من قبل رسالته؛ لأنّ الله هيأه لمكارم الأخلاق.

ففي هذه الآية إيماء إلى التّصدق، كما كان فيها إيماء إلى الصّلاة، ومن عادة القرآن الجمع بين الصّلاة والزّكاة.

(1) فخر الدين الرازي، التفسير الكبير "مفاتيح الغيب"، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الثالثة - 1420 هـ، (171/30).

(2) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد"، الدار التونسية للنشر - تونس، سنة 1984 هـ، (298/29).





واحدا، مخالفا لما ذهب إليه مجاهد. ولهذا فالمذاهب في تفسير هذه الآية ثلاثة وليس اثنين كما ذكر الطبري.

وتبعه في هذا التقسيم الثنائي الإمام ابن كثير في تفسيره، وخالفه في أرجح القولين، حيث رجّح رأي مجاهد والحسن وابن زيد، فقال: "قال مجاهد: أي: بيناه له ووضحناه وسهلنا عليه عمله. وهكذا قال الحسن، وابن زيد. وهذا هو الأرجح والله أعلم"<sup>(1)</sup>. ونسبه للجمهور عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿...﴾  
﴿...﴾<sup>(2)</sup>. واستغرب الرأي المخالف له، فقال: "وروي عن مجاهد، وأبي صالح، والضحاك، والسدي أنهم قالوا في قوله: ﴿...﴾  
﴿...﴾ يعني خروجه من الرحم. وهذا قول غريب، والصحيح المشهور الأول"<sup>(3)</sup>.  
ووافق الإمام ابن عاشور الطبري فيما ذهب إليه، إلا أنه اكتفى بملاحظة مناسبة الآية المذكورة للآية اللاحقة لها في توجيه معنى كلمة "السبيل". قال: "وفيه مناسبة لقوله بعده: ثم أماته فأقبره، فأماته مقابل خلقه و(أقبره) مقابل ثم السبيل يسره؛ لأن الإقبار إدخال في الأرض وهو ضد خروج المولود إلى الأرض"<sup>(4)</sup>.

وقوله تعالى: ﴿...﴾ من المواضع التي يمكن فيها الجمع بين مدلولات مختلفة، وهذا ما عناه الإمام ابن عاشور، بقوله: "والسبيل: الطريق، وهو هنا مستعار لما يفعله الإنسان من أعماله وتصرفاته تشبيها للأعمال بطريق يمشي فيه الماشي تشبيه المحسوس بالمعقول.  
ويجوز أن يكون مستعاراً لمسقط المولود من بطن أمه فقد أطلق على ذلك الممر اسم السبيل في قولهم: «السبيلان» فيكون هذا من استعمال اللفظ في مجازيه"<sup>(5)</sup>.

فيكون الاختلاف في هذه الآية من قبيل اختلاف التنوع الذي يرجع إلى أكثر من معنى، وسببه التواطؤ في لفظ السبيل<sup>(1)</sup>.

(1) أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1420هـ - 1999م، (8/322).

(2) الإنسان: 03.

(3) تفسير ابن كثير، (8/286).

(4) التحرير والتنوير، (123/30).

(5) التحرير والتنوير، (123/30).



الترجيح بالسِّيَاق في تفسير الإمام الطبري..... د. حذّة  
سابق

---

يريد علمهم بأن الأنبياء كانوا على الإسلام. وقيل: ما كتموه من صفة محمد  
صلى الله عليه وسلم، قاله قتادة. والأول أشبه بسِّيَاق الآية<sup>(1)</sup>.

---

(1) أبو عبد الله القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق هشام سمير البخاري، دار  
عالم الكتب، الرياض، سنة 1423 هـ/ 2003 م، (147/2).

### الخاتمة:

من خلال ما تم تفصيله في صفحات هذا البحث ندرك أهمية السِّيَاق لدى المفسرين القدامى، وفي طليعتهم الإمام ابن جرير الطبري، الذي تفنن وبرع في استعمال جميع أنواع السِّيَاق في تفسير القرآن الكريم، والترجيح بين الوجوه المختلفة المحتملة للألفاظ والتراكيب القرآنية، والذي استطعنا إبرازه على وجه الدقّة استعماله لسباق الكلام أو لحاقه أو كلاهما معا لبيان الرأي الصواب في ذلك.